الحياةِ لا الحياةِ من أصلِها وذلك لا يحرص عليه إِلاّ الحيّ ُ . فأمّ َا العادمُ للحياة فلا يَصِحُ منه الحرصُ على الحياةِ ولا على غيرها . وإِذا كانَ كذلكَ صارَ كأنه قيلَ : ولتجدنّ َهم أحرصَ الناسِ ولو عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا إِلى حياتِهم في ماضي الوقت وراهِنِه حياةً في الذي يُسْتَقْبَلُ . فكما أنّ َك لا تقولُ هاهنا أن يزدادوا إِلى حياتِهم الحياةَ بالتعريفِ وإِنما تقولُ حياةً إِذْ كانَ التعريفُ يصلحُ حيثُ تُرادُ الحياةُ على الإطلاق كقولنا : كلّ ُ أحدٍ يحبّ ُ الحياةَ ويكرهُ الموتَ . كذلك الحكمُ في الآية .

والذي ينبغي أَنْ يُراعى أنّ َ المعنى الذي يوصفُ الإِنسانُ بالحرصِ عليهِ إِذا كانَ موجوداً حالَ وصفِك له بالحرصِ عليه لم يُتَصوّ َرْ أن تجعَلَه حريصاً عليه من أصلِه . كيف ولا يحْرَصُ على الراهن ولا الماضي وإِنما يكونُ الحِرصُ على ما لم يُوجَدْ بعدُ .

وشيبهُ بتنكير " الحياةِ " في هذه الآية تنكيرُها في قولِه عزّ َ ولجّ َ : (وَلَكُم في القِصَاصِ حَيَاةٌ) . وذلكَ أنَ السببَ في حُسنِ التنكيرِ وأنْ لم يحسُنِ التعريف أنْ ليسَ المعنى على الحياةِ نفسِها ولكنْ على أنه لمّ َا كانَ الإِنسانُ إِذا عَلِم أنه إِذا قَتَلَ قُتِلَ ارتدعَ بذلك عن القَتْلِ فَسَلِمَ صاحبُه صارتْ حياةُ هذا المَهْمومِ بقتلِه في مُستأْنَفِ الوقتِ مستفادَةً بالقِصَاصِ وصارَ كأنّ َه قد حَيِيَ في باقي عمرِه به أي بالقِصاص .

وإِذا كان المعنى على حياةٍ في بعضِ أوقاته وجَبَ التنكيرُ وامتنعَ التعريفُ من حيثُ كان التعريفُ يقتضي أن تكونَ الحياةُ قد كانَتْ بالقصاصِ من أصلِها وأن يكونَ القصاصُ قد كان سبباً في كونِها في كافّ َة الأوقاتِ وذلك خلافُ المعنى وغيرُ ما هو المقصودُ ويُبيّ ِنُ ذلك أنك تقولُ : لك في هذا غنًى فتنكّ ِرُ إِذا أردتَ أن تجعَل ذَلك من بعضِ ما يُستغَنى به . فإِنْ قلتَ : لك في الغنى كان الظاهرُ أنك جعلتَ غِناهُ به .

وأمرٌ آخرُ وهو أنه لا يكونُ ارتداعٌ حتى يكونَ همٌّ وإِرادةٌ . ليس بواجبٍ أن لا يكونَ إِنسانٌ في الدنيا إِلاّ وله عدوٌّ يَهُمّ ُ بقتله ثم يردَعُه خوفُ القِصاصِ . وإِذا لم يَجِبْ ذلك فمَن لم يَهُمّ َ إِنسانٌ بقتلِه فكُفيَ ذلك الهمّ َ لخوفِ القصاصِ ليس هو ممّ َن حَيِيَ بالقصاص . وإِذا دخلَ الخصوصُ فقد وجبَ أن يقالَ " حياةٌ " ولا يقالَ " الحياةُ " كما وجبَ أن يقالَ " شفاءٌ "